« المباني الفرثية في اشور »

الدكتور ليو ترومیلمان

لدى الحديث عن العمارة الفرثية في اشور اود أن ابين بعض مشاكل تفسير الشكل الفعلي للمباني ، كتصميم الدور الارضية والتسقيف مثلا بالاضافة الى مشكلة تفسيرها .

لقد تم التنقيب عن ثلاث مجموعات رئيسية من المباني الفرثية في آشور (١) .

١ ـ فناء المعبد

٢ ـ ساحة المدينة

٣ ـ القصر الفرثي

يقع فناء المعبد في الطرف الشمالي من مدينة آشور فوق معبد اشور الاشوري الاقدم منه .

وتقع ساحة المدينة على مستوى اعلى بقليل بين فناء المعبد والزقورة . وكانت الزقورة نفسها في العصر الفرثي قلعة ومقرا للحاكم .

اما القصر الفرثي فهو بيت كبير يحجب سور المدينة الداخلي الاقدم في جنوبي المدينة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كل هذه المباني تتصف بوجود تصميم الدور الارضي والتزيينات المستعارة من النماذج الاغريقية والرومانية والمستعملة سوية مع ميزات تقليدية اقدم تعود لبلاد ما بين الرافدين مثلا .

الشكل (١) : على الجانب الشرقي من القصر الفرثي يوجد فناء تحيط به سلاسل من الاعمدة تبعد بينها مسافات منتظمة . ان مثل هذا الفناء يسمى بالاغريقية (Peristylon) واستعمل في فن العمارة في اقطار البحر المتوسط كفناء خلف قاعة مدخل البيت . وتحيط الغرف الاخرى في البيت بهذا الفناء . وفي حالة القصر الفرثي في اشور فانه ليس كذلك اذ ان البريستول يقع على حافة المبنى ويرتبط بالساحة الرئيسية بممر وسنعرف السبب فيما بعد .

يبدو ان حلية واجهات الايوان حول الفناء الداخلي والاعمدة ذات التيجان والطنف والدعامات الافقية فوقها مستمرة من الاشكال المعمارية الاغريقية ـ الرومانية اذ انها استعملت في المباني العامة كالمسارح والقصور .

ان علينا ان نبحث عن المعنى الكامن وراء اتخاذ واجهة مسرح اغريقي روماني كحلية للفناء الرئيسي في هذا القصر الفرثي .

كانت ساحة البلدة محاطة بسور وكانت الممرات تؤدي الى هذه المنطقة وفي الجانب الداخلي من الجدار توجد شرفة وقاعة ذات اعمدة تنفتح على ساحة وفي الجهة المقابلة من البوابات يوجد بناءان كبيران متعامدان الواحد مع الاخر . الشمالي يدعى بير بتيروس (Peripreros) .

لان الجوانب مزودة بممشى مسقوف يتكون من شرفة ذات اعمدة . ان هذا من الخواص الرئيسية للمعابد الاغريقية والرومانية ايضا فيما بعد

حيث تحيط الاعمدة بغرفة الاله او الالهة . ولكن في حالة البيربتيروس .

وفي اشور كان الضلع الامامي هالواجهات بشكل أقنية في القصر الفرثي ـ مع اعمدة غائرة جزئيا في الجدران . لذا يبدو انه توجد لدينا سمتان مختلفتان الواحدة اغريقية والأخرى رومانية واحداهما سمة تعود الى معبد والاخرى تعود الى مسرح مثلا . ترى لماذا جرى الجمع بينهما هنا ؟ علينا ان نجد الجواب على هذا السؤال .

يقع المبنى الاخر على الجانب الغربي من ساحة المدينة وامامه سلم كبير وله واجهة تشبه (البربتيروس) ، ولكن بدون الممشى المسقوف ، وربما كانت الجدران الجانبية مزدانة بنفس اسلوب تزيين الواجهة . ترى ما معنى هذا الاختلاف بين البنائين ؟

كان فناء المعبد محاطا بسور ايضا وكان المعبد في الخلف . وهو مبنى يضم ثلاث غرف تنفتح جنبا الى جنب على فناء ذي اقواس واسعة . ان هذا المخطط للمعبد غير اعتيادي في الشرق الادنى اوفي الغرب في بلاد ما بين النهرين او في منطقة البحر المتوسط . ان علينا ان نتساءل من اين جاء هذا الاسلوب المعماري ؟

لكل هذه الاسئلة صفة مشتركة ولنحاول ان نجد الجواب على بعضها . القصر الفرثي بيت كبير يغطي ما مساحته حوالي (٨٠ × ٥٠ متر) مربع وهو قصر حقيقي والاجزاء المهمة فيه مشيدة بالطابوق المفحور وبالمقارنة مع القصور الاقدم عهدا مثل قصر بابل فان القصر الفرثي يبدو مختلفا تماما ولكن لاول وهلة فقط . اذ لدى التمحيص في هيكل هذا البناء ومبادىء مخططه وزينته يقتنع المرء بان القصر الفرثي في اشور هو في الواقع سليل تلك القصور الاقدم منه .

يتجه البناء نحو الشمال او نحو الجنوب مثل المباني الطموحة على الاقل في الفترات المتأخرة من تاريخ بلاد ما بين النهرين وكما في بابل ايضا فان المدخل الرئيسي الى المبنى يقع الى الشرق . وهذه قاعدة . والقصر الفرثي يتبع هذه القاعدة ايضا ، ولكن بدلا من المدخل المعهود في بلاد ما بين النهرين فان القصر البارثي يضم البيرستول الذي ذكرناه سابقا وهو الفناء الذي تحيط به القاعات ذات الاعمدة . وقد فشل والتراندريه الذي نقب في آشور في ايجاد تفسير لهذه السمة الغربية (٢) ولكنني اعتقد ان بالامكان ايجاد تفسير لذلك . في القصور الاقدم في بلاد ما بين النهرين . كانت المباني المجاورة والممر تستخدم للاغراض التجارية من مختلف الانواع وكذلك للنظر في الدعاوى وحتى تنفيذ احكام الاعدام

اما بالنسبة للاغريق الذين جاؤا الى الشرق مع غزوات الاسكندر وبعدها فان الاعمال التجارية كانت ترتبط بفناء البيت الاغريقي الذي كان يقع خلف غرفة المدخل مباشرة في هذا الفناء المحاط بالقاعات ذات الاعمدة كانت تجري كافة الشؤون العامة للبيت .

ولما كانت التجارة الاغريقية تلعب دورا مهما في الشرق بعد الاسكندر بسبب تنوعها وحسن تنظيمها وحداثتها الفعالة فقد اصبحت نموذجا قلده رجال الاعمال الشرقيون ايضا . وفي حالة القصر الفرثي في آشور فان صورة الاعمال التجارية الحديثة والفعالة استعملت وفق النمط الاغريقي ـ الروماني المعهود بشكل البيريستيلون . ولكن هذا الفناء كان مفصولا عن محيطه الاصلي وحل محله المدخل في بلاد ما بين النهرين الذي كان مكانه اجراء الاعمال التجارية هناك . ان البيريستيلون على الحافة الشرقية من القصر الفرثي في آشور هو ـ بقدر تعلق الامر بوظيفته ليس اكثر من الباب في بلاد ما بين النهرين اي مكان تجاري .

وفي حين ان المدخل الخارجي والفناء الاول في القصر اقدم في بلاد ما بين النهرين ، كان يستخدم للاعمال التجارية عموما فان الفناء الداخلي وقاعة العرش في جانبه الجنوبي كانا يخصصان للاستقبالات الرسمية واستقبال الضيوف والاصدقاء . ولدى محاولة تفسير السمات الخاصة للفناء الرئيسي الداخلي للقصر الفرثي والغرف المجاورة للفناء نواجه مشكلتين كبيرتين . الاولى هي محاولة تفسير مخطط الدور الارضي ورفع مستوى الغرف عن هذه الخطة والثانية هي محاولة تفسير الواجهات الغربية التي تبدو لنا انها مستقاة من واجهات المسارح الاغريقية او الرومانية .

فيما يخص مخطط الدور الاول يجب ان نذكر انه في الفترة السابقة وخلف الواجهة الرئيسية على الجانب الجنوبي من فناء القصر الاشوري مثلا كانت توجد قاعة عرش مستطيلة الشكل عرضها ١٠ ـ ١٢ مترا وطولها حوالي (٤٠ ـ ٥٠) مترا وتمتد مع غرف اصغر تعود لها على امتداد واجهة الفناء . وكان الملك الاشوري يجلس مقابل الجدار الاقصر او الغربي . ان هذا الترتيب الذي يتضمن مواجهة العرش للمحور الطويل من قاعة العرش يتناقض مع موقع المداخل والواجهة كلها لانه من الخارج تتجه الواجهة وفق محور الفناء . وهذا يعني ان المدخل الرئيسي الى غرفة العرش هو في محور الفناء وكذلك في وسط قاعة العرش . وفيه ايضا طلعات على كلا الجانبين . يؤدي البابان الفرعيان (الى اليمين والى اليسار قرب زاويتي الفناء) الى قاعة العرش بجانب العرش او على الجانب المقابل له. وهذا يعني ان موقع الواجهة وموقع قاعة العرش لم يكونا متناظرين وكان ذلك مطبقا في العصور التي سبقت العصر الفرثي فمثلا في بابل كان عرش نبوخذ نصر في قاعة عرشه يقع مقابل المدخل الرئيسي في الوسط ليرى محور الفناء مع محور قاعة العرش وفي نفس الوقت فان الباب الرئيس المقابل للعرش كان موسعا وكان في التصميم عقد القوس على امتداد يصل الى حوالي عشرة امتار . ولكن ـ يبدو انه لم يمكن بالامكان تدبير مثل ذلك الامتداد . اذ انه قلص باستعمال اعمدة ذات اسس منفصلة ضمن المدخل الاصلي . وهذا يعني انه في العصور البابلية الحديثة على الاقل كان يسود اتجاه لترتيب قاعة العرش وفقا لمحور الفناء وتعريض الباب الرئيسي . ولكن لم يكن بالوسع تحقيق ذلك الهدف بنجاح حتى قيام العمارة الفرثية في الحضر وآشور . ان الاختراع الذي مكن من تحقيق ذلك الهدف كان اغريقيا ـ رومانيا ، اذ ان اسلوب العقادة على صقالة اسناد باستعمال الجص لم يكن معروفا حتى ذلك الوقت في الشرق . ويبدو ان ملوك الحضر استخدموا معمارا سريانيا ـ رومانيا واصبحت عمارة الحضر نموذجا للمباني الفرثية في اشور . ومن الحضر تعلم معماريو اشور كيفية مد وتعريض سقف المبنى بتقسيمه الى اجزاء اصغر بمساعدة الطلعات المقوسة . وبهذه الطريقة امكن ولاول مرة في بلاد ما بين النهرين منح الغرفة عمقا كبيرا مع عرض مناسب . ونشأ مع المباني السريانية ـ الرومانية في الحضر والقصر الفرثي في اشور الايوان اي القاعة العريضة المفتوحة كغرفة ممثلة للبيت . لم يكن الايوان الفرثي في اشور معقودا بل كان له سقف مستو . ان العقود الضخمة مثل طاق كسرى في المدائن امكن بناؤها بعد خبرة طويلة في تاريخ متأخر جدا .

ان تأثير فن العمارة في الحضر على المباني في اشور واضح جدا في مخطط معبد آشور الفرثي ان المعبد في اشور لا يضم الغرف الصغيرة المعقودة على كلا جانبي الايوان الرئيسي كما هو الحال في الحضر . ولكن الترتيب كله الذي يتضمن وجود ايوانين كبيرين الواحد بجانب الاخر وايوان اصغر قليلا في الخلف على الجانب الشمالي من الايوانيين الاخرين هو نفس الترتيب بالضبط . وهذا دليل على انه كانت تعبد نفس الالهة في كلا المكانين ـ وبقدر تعلق الامر بالشكل المعماري فان نموذج الحضر كان مقنعا كما يبدو .

فيما يخص زخرفة واجهات الفناء في القصر الفرثي فان العامل الرئيسي في شكلها هو المفاصل العمودية ممثلة في اعمدة رفيعة من الجص . وهي تشبه الاعمدة لانها تقوم على قواعد ولها تيجان في الاعلى ولا شك انه يوجد تأثير اغريقي ـ روماني يشاهد في الاستعمال المفرد للتيجان والقواعد وكان تركيب صفوف الاعمدة فوق بعضها يستعمل لواجهات المسارح في العالم الروماني . وانا مقتنع بان المصمم اتخذ من مثل تلك الواجهات نماذج يستفيد منها . ولكنه عدل فقط الشكل الواضح لمثل تلك الواجهات في النماذج الاغريقية الرومانية . ولم يكن ملما بالمبادىء الانشائية التي تقوم عليها العمارة الكلاسيكية لانه اعاد ترتيب الاعمدة في محتوى يختلف تماما . وكان ينوي تكوين واجهة قصر يعود لبلاد ما بين النهرين كان يجري التعبير عن معناه منذ زمن طويل من خلال المفاصل العمودية والمحاريب المدرجة مثلا بالطلعات وانصاف الاعمدة المتداخلة ووسائل اخرى تحقق كلها نفس الغاية فهي تظهر سمك وقوة الجدار وهو امر غير واضح في سطح مستو . ان قوة الجدار تؤكد اهمية المبني وان مصمم واجهات الفناء في القصر الفرثي في اشور كان يريد ان يعبر عن ذلك وقد استخدم عناصر اغريقية ـ رومانية حديثة .

وكان تفكيره وشعوره ينتميان تماما الى بلاد ما بين النهرين ان افتراض هذه العناصر امرظاهري فقط وليس اساسي .

اما الشكل المحدد للمباني العامة وساحة المدينة فانه اصعب تفسيرا اذ ان واجهاتها هي نفس واجهات فناء القصر وهذا يعني انها اشتقت من واجهات قاعات العرش الاقدم في بلاد ما بين النهرين وهو شكل قد يكون مناسبا للمقر الرسمي للحاكم او لمجلس المدينة ولكن ما هو معنى الشكل الذي قد يكون مناسبا للمقر الرسمي للحاكم او لمجلس المدينة ولكن ما هو معنى الشكل الذي يحتوي على صف الاعمدة للجوانب الاقل اهمية من المبنى الى الشمال من ساحة المدينة ؟ هنا ايضا كما اعتقد امتزجت الافكار الاغريقية الرومانية حول شكل المباني التي كانت تستخدم لاغراض خاصة مع التقاليد في بلاد ما بين النهرين ولتأكيد اهميتها فان المباني الرسمية في العالم الاغريقي الروماني كانت تزين كالمعابد بالاعمدة ومثل المعابد فانها كانت حرة في الغالب وهذا هو المقصود بالضبط عندما يكون للجدران الخلفية والجانبية صفوف

من الاعمدة . اننا نجد هذه الاعمدة الحرة فقط في المبنى القائم الى الشمال بينما المبنى الاخر بالسلم الكبير العالي لا يتصف بنفس الميزة . ويمكن ان يقارن السلم الكبير بالسلالم التي تفضي الى المنصة في قاعة العرش للملوك الاخمينيين في برسيبوليس مثلا . وتبين الغرض من ذلك المبنى كمقر للحاكم يمارس فيه مهامه الرسمية ويعقد مجالسه الرسمية . ان وظيفة الحاكم كمسؤول في الدولة كانت معروفة جدا في تاريخ بلاد ما بين النهرين القديم ولقد عبر عن مركزه من خلال مبنى كان على الناس ان يرتقوه . مزين بالزخارف العمودية كما كانت المباني الطموحة تزين في بلاد ما بين النهرين منذ اقدم العصور .

ان المبنى القائم الى الشمال والمزين بالاعمدة الحرة يتضمن فيما يبدو وجود غرض آخر يختلف عن الاخر واكثر صلة بالطراز الاغريقي الروماني . ولما كان الاغريق هم الذين ادخلوا اقامة المجلس الديمقراطي فاعتقد ان هذا المبنى كان يستعمل كقاعة مجلس .

ان دمج الاعمدة الاغريقية الحرة والغائرة جزئيا في الجدار كمسحة مميزة مع واجهة قصور ما بين النهرين قد تحقق باستحداث الايوان وتخصيص الغرفة المناسبة في العمق مما جعل الغرفة والمبنى كله اكثر شبها بالمباني الاغريقية الرومانية . ومن الجهة الاخرى فان الواجهات كانت تضاف الى العناصر الانشائية التي كانت غير اغريقية او رومانية كما ان السقف المستوى يعود الى بلاد ما بين النهرين بشكل تقليدي .

وختاما اود ان اوضح انه يبدو من الخطأ ان نغالي في تقدير مدى النفوذ الاغريقي ـ الروماني في العمارة الفرثية كما ان الحضر حالة منفردة وفن العمارة الحجرية في الحضر سورى ولا يعود الى بلاد ما بين النهرين . وهناك تفاصيل كثيرة مثل الاعمدة والتيجان والعناصر الزخرفية المختلفة وهي اغريقية ـ رومانية وقد استخدمت في العمارة الفرثية وبوسع المرء ان يشير ايضا الى تبني بعض مسحات العمارة الاغريقية التي كانت ـ علامات الحداثة والفاعلية والتي كانت تعبر عن وظائف معينة . ولكن مخطط البيوت السكنية كالقصر الفرثي مثلا بالاضافة الى زخرفة الواجهات مستمدة من تقاليد ما بين النهرين الاقدم وتلتزم بها . ولما كان نفس المخطط ونفس اسلوب تزيين الواجهة نجدهما في المباني الاسلامية العائدة لفترات تلتها فان العمارة الفرثية في اشور تشكل نقطة اتصال بين حضارة بلاد ما بين النهرين القديمة وحضارة الحقبة الاسلامية الممتدة حتى الوقت الحاضر .....

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی